الباب الخامس

العوامل الايجابية فى الاخلاق

obeikandl.com

الفصل الاول

الوقاية والعلاج

معظم ما مر بنا من الحالات هو أمثلة على الطرق السلبية فى معالجة اخلاق الصبيان . وبمعنى آخر الحالات التى مرت هى علاج لبعض العناصر السلبية فى الاخلاق . فلم يكن ما مر بنا وسائل ايجابية اتخذت لوقاية الصبيان بل هو مقاومة لشىء كائن من الاصل أو آخذ فى التكوين والنماء . حالنا فى هذا كحال الطبيب الذى يشرع فى معالجة الداء ومقاومته بعد أن اخذ سيره فى جسم المريض . فالمرض قد وجد والمريض أخذ يشكو منه وبقى على الطبيب أن يستأصله ان استطاع

وهذا كما لا يخفى ليس اسمى انواع الطب وليس هو الواجب المهم والاساسى للطبيب . لقد مر الزمن الذى كان يظن فيه أن مثل هذا التصرف هو المثل الاعلى للطب . لا يجب أن يقف الطب مكتوف اليدين خلى البال الى أن تنشب الامراض فى الناس ثم يقاومها ويحاول استئصالها والقضاء عليها . وأى مصلحة أو وزارة للصحة تسير على هذا الزعم لا تستحق أن تبقى بل يجب أن يقضى عليها كالداء سواء بسواء . فليس اذن يصح أن تبنى الانظمة الصحية على هذا المنوال السلبى الذى سمح للمصيبة أن تحل ثم يسعى جهده لتخفيف وقعها على الناس . ونقصد من هذا بالطبع أن الواجب ان تحتاط الهيئات سواء اكان هذا فى الطب أم فى غيره للحوادث قبل وقوعها . وبعبارة أخرى يجب أن تسبق الحوادث وتتحكم فى عواملها حتى لا يقع منها الا الذى يجب أن يقع ، وهذا بالطبع لا ينفى انها تعالج الحوادث اذا وقعت على خلاف ما تشتهى ونروم

واسمى انواع الطب اذن هو ما كان للوقاية وليس للعلاج وهذه هى السياسة

الى تحاول البلاد المتمدينة أن تأخذ بها . فهى لا تقف مكتوفة اليدين الى ان تضطرها الظروف للعلاج . بل تسعى جهدها لكى لا يشعر الناس انهم فى حاجة الى خدماتها

وكذلك الحال فى الامور الاخلاقية . فخير انواع التربيات على الاطلاق هو ماتوجه الى البيئة بقصد اصلاح عناصرها وترتيبها حتى تصير مواتية للبناء الاخلاقى ليس لأن هذه السبيل هى اسهل الطرق للتربية الاخلاقية فقط بل لأنها انجعها على العموم وابقاها اثراً

انجعها وأبقاها أثراً أولا لأن موقف المربى فيها موجباً وليس سلبياً ، وبمعنى آخر فيها يكون المربى متفقاً مع طبيعة الصبى التى تتطلب منه أن يفعل وينشط . فالمربى الذى يكون قد رتب عناصر البيئة بحيث تتطلب من الصبى أن ينشط يكون قد استخدم الطبيعة فى معاونته على اغراضه واستعان بها على توجيه حياة الصبى الى وجهات نافعة مفيدة . وبمعنى آخر لايجب أن يبنى المربى سياسته على الوجهة السلبية بحيث يقف للصبى وسيابته أمام انفه فى كل مرة يتعامل معه . لا يحسن أن تكون كل بضاعته « لا تفعل هذا . ولاتقرب ذلك . واياك وذاك » لأن الاطفال ليسوا مستعدين لأن يقبلوا هذا على علاته ويستسيغوه . وما اقرب أن يعمم الطفل هذا النحو من النصائح ويشعر أنه لا فائدة من اطلاع المربى على نياته . وما الفائدة من اطلاع المربى على هذه النوايا اذا كان الاغلب أنه سينتفض ويشهر سيابته فى وجه الطفل ويقول « كلا » ؟ أنه لخير للطفل ان يظن ولو خطأ انه من المحتمل ان يوافق المربى على ما يزمع الاخذبه . يحسن به ان يشعر ان القبول والرفض هما على الاقل فى درجة واحدة من الاحتمال ، متى استقر هذا فى نفس الطفل فسوف يعرض كثيرا من مشروعاته على المربى ويأخذ رأيه فيها . وسوف لا يتهم المربى بالتعسف او الاستبداد

اذن فالوجهة السلبية — ونحن ندمج العلاج الاخلاقى فى هذا الباب — ليست أقوم السبل فى تكوين شخصية الصبى ، بل من المحقق ان الناحية الايجابية أجدى فى الوصول الى هذا الغرض ، أجدى لأنها تستقيم مع طبيعة الصبى التى تتطلب الحركة والنشاط المستمرين ، وهذه الطريقة كما قلنا تقوم على تنضيد عناصر البيئة بشكل يستدعى بعض أنواع التصرفات من الصبى ، وهذا بالطبع ممكن الى حد كبير وان كانت بعض العناصر الكثيرة تخرج عن طوق المربى والصبى جميعاً

نقول ان التربية الموجبة أو المفيدة تقوم على معالجة البيئة وليس الصبى . أو بعبارة أخرى ، تقوم على الوسائل الغير المباشرة ، فلا يجب مثلا أن ينتظر المربى الى أن يرى أثار الجبن والخوف تبين على الصبى ثم يسعى فى معالجتها لان هذه كما قلنا طريقة سلبية ، ولأنها سلبية تجدها أقل جدوى ونفعا واصعب على المربى وأشق ، انما يجب على المربى الذى له قدر كاف من الذوق السليم ان يسلك الى نفس الصبى مسالك موجبة ، وبمعنى آخر يحتاط حتى لا تنبت جذور الجبن والخوف فى نفس الصبى أصلا . وذلك بترتيب البيئة بشكل تجعل الصبى مطمئنا نوعا وواثقا ان النتائج لن تكون مما لايطاق ولنضرب على ذلك مثلا حتى نبين بالضبط مانريد ان نقول

طفل عادى المشاعر والعواطف والقوى العقلية ، وليكن هذا الطفل فى الرابعة من عمره مثلا ، ثم ليكن لهذا الطفل كلب يلعب معه . وليكن ان الكلب قد غضب لسبب من الاسباب وعوى بشكل لم يعهده الطفل من قبل . فوقف الطفل فى مكانه بعيداً عن الكلب ، وقف فى حالة تردد وخوف وانتظار لما عسى أن يكون ، ثم لنفرض ان المربى واقف يرقب هذا المشهد أو كان بالصدفة على مرأى ومسمع من هذه الحادثة

هذا هو ترتيب البيئة من غير ان تمتد اليها يد المربى بالتعديل ومن غير ان يتناول عناصرها فيجعلها تتخذ شكلا آخر ، لنفرض أن هذا ما كان فاذا لم تتعد

الامور هذا الحد كان فى استطاعة المربى ان يعمل عملا ايجابيا فى تلك الناحية — ناحية الخوف والشجاعة — من نفسية الصبي ، وبمعنى آخر يستطيع المربى عند هذه النقطة ان يدخل عمدا بعض العناصر الاخرى على البيئة فتستدعى من الصبى بعض أنواع النشاط الذى يولد فيه الاقدام والشجاعة بدلا عن الخوف والجبن ، نقول انه الى هنا لايكون المربى مطالباً بمعالجة نفسية الطفل بل البيئة ويكون حاله كحال الطبيب الذى يرى جراثيم مرض معلوم ويرى جسم الانسان أيضاً ثم يرى ان الاتصال بينهما يوشك ان يتم ، ومتى كان الامر كذلك لايطلب من الطبيب ألا أن يترك الانسان وشأنه ويمدد يده الى الجراثيم فيبيدها فلا يعود فى حاجة الى معالجة مريض بل وقاية انسان صحيح سليم

ومعالجة البيئة على هذه الحالة يتطلب منه أن يدخل بعض العناصر عليها كأن يقول للكلب مثلا « ماذا جرى يافيدو ؟ لماذا غضبت ؟ أنت تستحق العقاب والتأديب ، فاسكت لئلا يؤدبك فلان (الطفل) اما اذا هدأت واستغفرت فسأطلب اليه أن يسامحك » ومتى سمع الطفل هذه الملاحظات فسوف تصل الى جهازه العصبى بعض المؤثرات الجديدة ، وسوف تستفز هذه المؤثرات بعض الاستجابات أو التلبيات المرغوب فيها

أو يستطيع المربى أن يقول للصبى مثلا « لماذا اعتديت على هذا الكلب يافلان ألا تعلم أن الحيوانات تستحق منا العطف والرحمة بدل الاعتداء والمضايقة ؟ لماذا أخفته وروعته وهو أولى بأن يطمئن اليك لأنك صديقه الذى تحبه ؟ انظر كيف هو يصيح خوفا منك » ، ثم يلتفت الى الكلب ويقول « تعال يافيدو يامسكين ، أنه لايقصدك بسوء فلا تخف وتصيح » يستطيع المربى أن يفعل هذا أو مافى معناه بهذا الشكل أو بشكل آخر قريبا منه حتى يدخل بعض عناصر الطمأنينة الى نفس الطفل ويستفز منه عوامل الثقة بالنفس والاعتداد بها لأن البيئة كما هى فى

هذا الظرف ينقصها هذا العامل المهم وتتطلب علاجا يدخل فيها أمثال هذه العناصر التي يشعر الطفل أنها معدومة . وأن عدم وجودها يحدث فيه الخوف والجبن

وبمعنى آخر أقصد أن أقول أنه يجب على المربي فى هذا الظرف وأمثاله أن يدفع بنفسه ليكون جزءاً من البيئة وعاملا فيها فعالا فيغير فى عناصرها ويبدل ويزيد ويحذف ثم يترك الصبي لنفسه يستجيب لمجموع هذه المؤثرات التى دخل فيها عنصر مهم جديد وهو هذا المربي ذاته ، ولن يكون إلا أن الطفل سيشعر بهذا المؤثر وسيستجيب له بشكل من الاشكال ، وسوف تكون الاستجابة من النوع النافع للاخلاق متى كان المربي مقدراً لما هو فاعل

أما إذا لم يفعل المربي هذا فقد يحدث أن الكلب يثور ويتحفز ويثب على الطفل فيلقيه على الارض ويعضه قبل أن يتداركه المربي . وفى هذه الحالة تنتقل المسألة من دور الوقاية الى دور العلاج لأن الخوف وثب الى فؤاده ونشب فيه بشكل مباغت لا تحتمله نفس الطفل وسوف يطول العلاج بالطبع وسوف يكون شاقا على المربي وعلى الطفل جميعاً ، وسوف يضطر المربي لأن يقرب اخلاق الطفل من ناحيتها السلبية ، وهذا وان كان ضروريا إلا انه ليس احسن انواع التربيات فيجب أن يتدارك المربي الظروف حتى لا يعود يجد نفسه مضطراً لمعالجة الصبي

ننصح اذن بأن يلقى المربي بنفسه فى البيئة حتى يعالجها فيعيد للطفل اطمئنانه وثقته بالبيئة . ومع اننا ندعو الى هذا الا اننا ننصح المربين أن يدرسوا الظروف بعقل وروية قبل أن يدخلوا فيها كعامل من العوامل ، يجب أن يكيفوا تصرفهم حتى يصير ذلك العامل المطلوب النافع فى بناء اخلاق الطفل . فلا يجب أن يكون غرضهم طمأنة الطفل وحمايته بل فائدته الاخلاقية . ولسنا نقصد من ذلك الى أن يتركوا الاطفال معرضين للاخطار ويمتنعوا عن حمايتهم للامتناع فقط ، بل يجب أن يحموهم لانهم فى حاجة الى الحماية حقاً ، وانما نقصد أن نقول أن الحماية وحدها

لا يجب أن تكون غرضاً فى جميع الحالات ، لأن المجازفة والتعرض للاخطار ضروريان فى تكوين شخصية الطفل وهما عاملان يجب أن يتوافر منهما للصغار قدر مناسب يستقيم مع تقوية نفوسهم وبث الشجاعة فيهم ، وأما اذا لم يحتط المربى لهذا فسوف يكون دخوله الى البيئة عاملا سيئاً فيها وسوف يعين العناصر الضارة فيها على قهر نفسية الطفل واخضاعها للعوامل الضارة بالاخلاق

ولنعد الى المثل السابق لنرى كيف يمكن أن يكون هذا ، لقد قلنا ان البيئة كما تخيلناها فى المثل السابق تحتاج فيما تحتاج الى شيئين مهمين وهما عنصر الطمأنينة والشجاعة — الطمأنينة على سلامة الطفل لئلا ينهشه الكلب ويمزق له ساقا ، والشجاعة لئلا تتغرس فى نفسه بذور الخوف ، وهى بعد ان تتغرس سوف تنمو وتكبر وتتحكم الى حد كبير فى تصرفاته فى حياته كلها — هذان اذن هما العاملان اللذان تحتاجهما البيئة فى هذه الحالة ويجب أن يضطلع بهما المربى بقدر معلوم وبقصد حتى يتوافرا للصبى فيسلم من عضة الكلب ومن الخوف على السواء . وبمعنى آخر يجب على الاب أو المربى أن لا يفزع ويضطرب وتتملكه العواطف الحادة فيعمل عملا سريعاً حازما لانقاذ الطفل فى هذا الظرف . يجب ان يتحكم فى عواطفه ثم يعمل

أما اذا فزع لهذا المنظر فسوف يثب من على مقعده بشكل مباغت ويحول بين الكلب والطفل كأنه يسارع الى انتزاع الطفل من بين مخالب الموت الاحمر فيفهم الطفل ان لو قد تأخر أبوه عن نجدته لنفذ فيه القضاء الاعظم — أما لو حدث هذا فقد دخل المربى كعامل فى البيئة وبالبته مادخل أصلا لأنه قد عاون الظروف الرديئة والبيئة المعادية على افساد نفسية الطفل ، واذا لم يعالج الطفل من هذا علاجا مقصوداً أو غير مقصود فسوف تبقى نفسه عليله الى الأبد

لهذا السبب قلنا انه يجب أن تكون التربية الاخلاقية موجبة وليست سلبية ،

أو بعبارة أخرى يجب أن نتناول البيئة وليس الطفل لأن خير السياسات ان يحتاط الانسان حتى لاتنشب فيه الأمراض من الاصل — هذا خير من أن يدعها تقع ثم يشرع فى علاجها

ثم هناك سبب آخر نريد أن نذكره هنا وهو ان السبيل السلبية كثيراً ماتسبب الاحتكاك بين شخصية المربى وشخصية الصبى كما مر بك فى الفصول السابقة ذلك ان معالجة المرض الاخلاقى تقوم فى الاصل على شعور مشترك بين المربى والصبى ان وجهات نظرهما اختلفت وان تصرف الثانى لايعجب الاول ولا يروقه وان الاول يفرض فى نفسه ويجعل الصبى يشعر أنه أفضل خلقاً وأعلى كعبا فى الفضائل وأعلم بقواعد السلوك من الثانى ، وكثيراً مايعجز الطفل عن ان يرى العيب فى بعض أنواع السلوك التى لاتعجب المربى لا بل كثيراً مايرى ان تصرفه لاغبار عليه وان المربى متعسف مستبد ليس إلا ومن هنا تتسع الهوة بين الاثنين ويستحكم الخلف حتى لايعود يفهم أحدهما الآخر وحتى لايعود يجمعهما شعور بالعطف المتبادل وبالطبع يدفع هذا بالصبى الى ان يفقد ثقته كلها أو بعضها بمربيه

فعوامل الخطر كثيرة فى هذا الضرب السلبى من معالجة الاخلاق ، وأهم هذه هو العامل الشخصى الذاتى الذى يدفع كلا من الطرفين الى جهة مضادة لتلك التى يسلكها الآخر ، ومتى دخلت العوامل الشخصية فى موضوع التربية فقـــد جاز الخطأ على المربى كما يجوز على الصبى ، وصار عرضة لأن يركب شهواته ويخضع لعواطفه ومزاجه واهوائه كما يفعل الصبى سواء بسواء ، وبمعنى آخر يصير المربى عرضة لأن يغضب ويحتد ويثور فينتقم ويعاقب ويتحكم ويستبد ولا يربى أو يقوم الاخلاق ، كل هذه أخطار ممكنة ومحتملة فى الناحية السلبية من التربية

ولكن هذا لايعنى أنه من الممكن أن نستغنى عن هذه الناحية ، كلا فان أمراً مثل هذا لايعقل ، ذلك لأن المربى لايمكن ان يكون دائماً أبداً جزءا من البيئة التى

يحيا فيها الصبي وينشط ، ولايعقل أنه يشهد كل المؤثرات التى تستفز صبيه للنشاط لأن هذا من المستحيلات المادية ، فسوف تفعل البيئة فى الصبي بينما المربى غافل أو غائب ، وسوف يوجد الصبي وجها لوجه أمام البيئة . من غير أن يكون المربى عاملا من عواملها ، ومتى استقر هذا فى أذهاننا وسلمنا به فقد حق علينا أن نقول أن المعالجة أو السبيل السلبية للاخلاق ضرورية ومحتمة ولايمكن الاستغناء عنها بحال من الاحوال ، وانما مازلنا نزعم أنه من الخير المحقق أن يستعين المربى بالبيئة فى تكوين أخلاق الصبي وترتيبها بحيث تتطلب نشاطاً معلوماً من الصبي — نشاطا ينمى أخلاقه بطريقة آلية

ولنأخذ على ذلك مثلا يساعدنا على أن نفهم المقصود من الاستعانة بالبيئة فى التربية الايجابية ، ولنأخذ الناحية الاجتماعية من الاخلاق ، ففى هذه لايجب أن يقف المربى مكتوف اليدين الى أن يرى الصبي مندفعا فى سبيل الفردية البغيضة ومحبة الذات المزدولة ، لايجب أن يقف مكتوف اليدين الى أن تستبين هـــذه الظاهرة فى الصبي ثم يعالجها ، بل يجب عليه أن يدبر للصبي مشروعات مشتركة يساهم فيها الصبي بقسط مع باقى الصبيان ، يجب أن يستنبط مشروعات لذيذة جذابة تستدعى جماعة من الصبيان يعملون متكاتفين لغرض واحد مشترك ويتوقف نجاحها على مقدار مايبذل الفرد فى معاونة الجماعة . ويجب أن يكثر من هذه المشروعات وينوع فيها ويستمر فى الاخذ بها مادام الصبيان فى عهدته . يجب أن يصر على هذه السياسة ولاينقطع عنها وهى كفيلة بأن تنمى النواحى الاجتماعية من حياة الصبيان ولا يتبادر الى الاذهان أن مثل هذه السياسة ستقضى على محبة الذات قضاء أخيرا كلا ، فيجب أن نوطن نفوسنا على أننا سوف نقابل حالات كثيرة منها مع كل مانعمل فى النواحى الايجابية . وسوف نجد أنفسنا مضطرين لمعالجة كل حالة على حـــدة .

وانما المقصود من ذلك أنه يجب علينا ان نستخدم النشاط والبيئة فندخل فى الثانية لنجعلها تتطلب نوعا معلوما من النشاط يستقيم مع الاخلاق . وليس بمستغرب ان نصل الى هذه النتيجة لأنه قد وصل اليها علماء التربية قبلنا ، والنتيجة هى هذه ، انما الاخلاق وليدة النشاط ،

« النشاط هو أبو الاخلاق » هذه هى القاعدة التى بنى عليها قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية . وهذا المعهد ليس مصحاً للمعلولين اخلاقياً . ولا هو اصلاحية احداث بوجه من الوجوه ، وانما هو معهد يرمى الى ايجاد بيئة ملائمة للنماء الخلقى ، والمؤثرات التى فيه تستدعى نشاطاً معلوماً — نشاطاً خاصا يؤدى الى نتائج عملية فى الاخلاق ، وبمعنى آخر ان كل أنواع النشاط المتوافر فى قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية يؤدى الى هذه الغاية والى غايات أخرى مهمة وهى تنمية مدارك الصبى العقلية وتقوية بدنه وانماء نواحى حياته الاجتماعية وانهاض شخصيته للقيادة والزعامة

فهذا المعهد اذن يأخذ بالسبل الايجابية فى التربية الاخلاقية وفى نفس الوقت لايضن بالعلاج فى الحالات التى تتطلب العلاج ، وعلى هذا فكل الحالات التى مرت فى هذا الكتاب كانت للعلاج فقط

وبالطبع لدى قسم الصبيان حالات أخرى كثيرة — لا بل أكثر مما مر فى هذا الكتاب لديه حالات ايجابية فيها رتب البيئة للصبى بحيث ينشط ويفعل فيبنى خلاقه بطريقة آلية ، ونحن مزمعون ان نذكر بعض هذه الحالات وكيف ان اسكرتير قسم الصبيان استطاع بادخال بعض المؤثرات الجديدة فى البيئة ان يحصل على استجابات اخلاقية مطلوبة ، وسوف يرى القارىء أنه يمكن للمربى متى حلل عناصر البيئة واكتشف العوامل الناقصة فيها وانه متى أدخل هذه العناصر المطلوبة على البيئة فسوف يحصل على نتائج اخلاقية مهمة

ويحسن بنا قبل ان نورد بعض تلك الحالات ان نحذر القارىء التعميم والاطلاق ، وبمعنى آخر نحن لانزعم اننا نستطيع ان نبني الاخلاق بتصرف واحد مخصوص فى ظروف مخصوصة . أو متى تشجع الصبي فى حالة خاصة فقد صار شجاعا واستمر كذلك . كلا نحن لانزعم هذا وما نخاف التعميم الا لهذا . وانما كل مانرمى اليه ونزعمه هو هذا « متى استمر الصبي يستجيب بطريقة خاصة ومتى توافرت له الظروف بحيث يستجيب هكذا لمدة طويلة من الزمن نستطيع ان نوقن أنه سوف يقبل على هذا النوع من الاستجابات كلما استفزته البيئة للنشاط » ومعنى هذا بكلام واضح ظاهر ، معناه ان الصبي الذى يجد الظروف معينة له على ان يشجع ويقدم مدة طويلة من الزمن فسوف يشب شجاعا مقداما ، وعلى هذا فنحن لانستطيع قياس أخلاق الصبي بحادثة واحـــدة اذ لايؤمن التعميم والاطلاق ، وقسم الصبيان يعلم ذلك حق العلم وهو لذلك يرتب البيئة بحيث ينشط الصبي بطريقة خاصة . ومتى تم ذلك يسعى القسم الى ان يوفر الظروف لمثل هذا النشاط ليتكرر ويعاد مادام الصبي متصلا به ، ومتى دامت الصلة بين المعهد والصبي مدة من الزمن فللقسم الحق فى ان يزعم ان حياة الصبي قد تغيرت

وليس هذا الزعم فروضاً واحتمالات وانما يشهد به كل من عرف صبيان هذا المعهد من سنتين ورآهم الآن ، والمؤلف واحد من هؤلاء فقد شهدته طول هذه المدة ووجدت ان حياة الصبيان فيه الآن تختلف عن حياتهم من سنتين مضتا ، واذن فللمؤلف الحق فى ان يزعم ان ماعمل كان ذا أثر نافع فى الاخلاق

والآن هلم الى بعض تلك الحالات

الفصل الثانى

تسامح بديع

ملعبنا الرياضى يطل على ملعب التنس الخاص بقسم الرجال فى جمعية الشبان المسيحية ، والواقع أنه لا يفصل هذين الا سور عال من السلك يمنع الاتصال بين الاثنين ولكنه يسمح للانسان أن يرى ويسمع ما يدور فى الملعب الآخر وللملاعب التنس خادمان صغيران موكلان بجمع كرات التنس للاعبين كما هى العادة فى كل الملاعب ، اذن فالطرفان ـ الصبيان والشبان ـ يلعبان على مرآى ومسمع من بعضهما

فيوماً من الايام سمعت نقراً على باب مكتبى فدعوت الطارق للدخول ، فدخل وفد من الصبيان مكون من خمسة ، دخلوا وجلسوا وعلامات الاهتمام بادية على وجوههم مطلة من عيونهم كأن الخطب جلل وكأن الفلك يوشك أن يتوقف عن الدوران ، ثم قال أحدهم :

ـ « يايعقوب افندى : نحن من عائلات طيبة واباؤنا من كبار الناس ومعظمنا انا خدم فى بيوتنا » وهكذا الى آخر هذا الحديث الذى يحتج به « الافندى » عندما تكون له شكاية ضد أحد افراد الطبقات الفقيرة من الشعب ، فالشتيمة مستساغة أو مغضى عنها متى كان مصدرها « افندى » ولكنها امر جلل متى صدرت من احد العامة ، ما علينا ، فمحصل الشكاية أن احد خدمه التنس شتم عضواً ، وهذا العضو طلب قصاصاً . فقلت :

ـ هل شتمت أنت ؟

ـ نعم

وهل شهد هذا الفعل أحد من هؤلاء ؟

— فقال الجميع كلنا سمعه وكلنا يحتج على هذا ويطلب منك أن تقتص لنا من هذا الخادم

(وكلام كثير غير هذا محصله . لا تنس انه خادم وان هذا « افتدى »)

— فقلت سأبحث الموضوع واتصرف فيه بما يجب وسوف تعلمون النتيجة

ان التسامح خلة حسنة وهو صفة للنفوس الكبيرة . وهو كمثل كل الاشياء الاخرى ينتظر الفرصة لينغرس فى نفوس الصبيان ويثمر، ومن واجبنا كمربين أن نتحين الفرص فنوجد له البيئة اللازمة . وبمعنى آخر يحسن بنا أن نستعين بالبيئة على ايجاد هذه الروح فى من يتصل بنا من الصبيان والاطفال . أما كيف نفعل ذلك فهذا يترك للمربى نفسه ليبحثه لأن لكل حالة ظروفها وملابساتها ولا ينفع فى الواحدة ماينفع فى الاخرى اوعلى أى حال شعرت أن هذه فرصتى فان استطعت أن اعمل فيها شيئاً من هذا القبيل فبها والا اقر بالعجز فى هذه الفرصة وانتظر غيرها الى أن تحين

وكان التنس موكولا الى من قبل الجمعية ايضاً وكنت استطيع أن اتصرف فى اموره كما اتصرف فى امور قسم الصبيان — فدعوت صبي التنس وهو لا يتجاوز الرابعة عشرة وسألته فى هذا فاقر واعترف بأنه دعا ابا العضو كلبا

— وكيف تقول مثل هذا الكلام ؟ هل تعلم أنه قبيح أن تتلفظ به فى هـــذا المكان ، وقبيح أن تتلفظ به فى أى مكان آخر ؟

— نعم اعلم ذلك ولكنى طلبت اليهم أن يرموا الكرات التى سقطت فى ملعبكم فرفضوا ؟

— واذا رفضوا تعاقبهم أنت ، وهم غير مخطئين ولا يستحقون العقاب الحق نك ولد بطال ولا بد من تأديبك

ثم ذهبت الى رجل التينس وطلبت اليه ان يستأجر صبيا غير هذا ثم اطلعت الرجل على السبب فى ذلك وزدت عليه بأنه أخطأ فى حق الجمعية وهذا ممكن

ان نسامحه فيه بشرط ان لايعود اليه مره أخرى ثم انه أخطأ فى حق عضو من قسم الصبيان وهذا شأن العضو يتصرف فيه كيف يشاء . وليس لنا حق ارشاده الى مايجب ان يصنع فى مسألة له فيها حق . ثم تركت المسألة عند هذا الحد وأظن ان الرجل فهم ما أرمى اليه — ذلك لان الحوادث التى تلت هذا إن كانت مما يدل على ان ظنى كان فى محله

والظاهر ان الصبى استسمح العضو فصفح عنه لانى كنت فى مكتبى واذا بطارق ولم يكن الداخل أحداً سوى هؤلاء الخمسة الاعضاء ، وقال أحدهم

— نمى الينا انك انتويت ان تطرد هذا الصبى

— فقلت نعم لقد نويت ان أفعل هذا بالضبط

— قال الشاكى : لكن أنا لست من هذا الرأى

— فليكن ولكنى سأطرده على أى حال لانه أذنب ذنباً كبيرا

— لقد أذنب فى حق أنا

— وماذا يهم ، لقد اذنب والسلام

— بالطبع هذا مهم جداً لانه أذنب فى حق أنا وأنا أريد أن اتنازل عن هذا الحق ، لقد طلبت ان يعاقب فلى الحق ان أطلب مسامحته

— وماهو الرأى الآن ؟

— الرأى أن يسامح وكأن المسألة لم تكن ، نرجو هذا ونلحف فى الرجاء لانه لو مسه عقاب لتألمنا جميعاً

— ليكن ما تطلبون

ثم خرجت الى ذلك الصبى وأخبرته أنه مسامح فيما فعل بشرط ان لايعود الى مثل هذه الالفاظ مرة أخرى . فاخذ يشكرنى . فقلت « لاتشكرنى أنا مطلقاً لانى ما زلت أرى عقابك بطريقة من الطرق ، والحق لم ينقذك من هذا العقاب أحد

الا من شتمت ، ثم انصرفت الى بعض شئونى ، وبعد برهة كنت داخل البناء اطل من النافذة على الملعب على غير قصد فرأيت صبي التنس والعضو يتحدثان من غير ان يرياني ، وسمعت الصبي يقول « أشكرك يافندى ، وأرجو المعذرة مرة أخرى » ، وسمعت العضو يقول « لا لا — لاتستحق المسألة كل هذا نحن — أصحاب »

الحق ان هذا الانتهاء أعجبنى وراقنى ، وأظنه يعجب القراء ويروقهم أيضاً ، ويحسن بى ان انبه الى ان كلا من من الطرفين قد تعلم درسه ولم تحدث حادثة أخرى من هذا القبيل

الفصل الثالث

انبثاق الثقة بالنفس

وحكاية اخرى من هذا القبيل حدثت بين اثنين من اعضاء قسم الصبيان ، حدثت فى زمن مبكر من حياة هذا المعهد . وكانت هى الاخرى تستدعى عقاباً . وقد كنا على استعداد لأن ننزل هذا العقاب بالعدل اذا لم نستطع أن نصلح المخطىء ونعلم الآخر درسا فى التسامح والعفو عند المقدرة

حدث ان صبيا شتم صبيا أصغر منه ، وخاف الصغير ان يتقدم بالمسألة الى ان لا ينتظره الصبى الآخر فى زاوية من الشارع ويضربه . فكان على أن اشجع الصغير حتى لا يخشى بأس الكبير أولا وأن أجعل الكبير يحترمه ثانياً وأن أساعد الصغير على أن يعفو عن مقدرة ثالثاً — كل هذه اغراض اسعى اليها مستغلا هذا الظرف فان نلتها غبطت نفسى وإلا اكتفيت ببعضها ، اما أن لم يكن هذا أو ذاك فكان على أن أنهض لمساعدة الصغير لانه فى حاجة الى المساعدة . قلت فيما سبق أن الصغير لم يطلعنى على المسألة ولكنها وصلت الى على عن طريق آخر ، ومن حيث أن لها خطرها قررت أن اسير فيها مهما كلفنى ذلك حتى ولو اضطررت أن أطرد المعتدى

دعوت الصغير الى مكتبى وقلت

— ماذا قال لك فلان ؟

— لم يقل شيئا

— لماذا تنكر الحادثة ؟

— أية حادثة

ـــ لا تمارى أو تكذب يابنى

ـــ الحق يايعقوب افتدى أنى أخشى أن يضربنى هذا الصبى أن قلت لك

ـــ يضربك ؟ وأين يداك حينئذاك ؟

ـــ هو أكبرمنى

ـــ وان يكن ، لايجب ان ترهبه الى هذا الحد

ـــ واذا ضربنى فى الشارع ؟

ـــ قاومه ، ثم اضربه مااستطعت ، وأهجم عليه غيرمدافع : فاذا بدأك بالمناوشة ابدأه أنت بالضرب ، ولاتكف عنه الا عندما تعجز عن ضربه

ـــ ولكن اخافه

ـــ خوفك هو الداء وليس عجزك ـ افهمت ؟ انت لست عاجزا ولكنك خائف

ـــ هو كذلك

ـــ اذن تشجع وانا اعينك عليه

ـــ كيف

ـــ هذا شأنى ، الا تثق بى ؟

ـــ نعم اثق

ـــ اذن ان اعتدى عليك فاضربه وانا سأدبر طريقة معونتك

ـــ وهو كذلك سأضربه أن تعرض لى بشر

ـــ حسن وما الحقيقة فى الموضوع

ـــ لقد شتمنى بأقبح الألفاظ وهى . . . .

ـــ هذا بالضبط ماوصل الى فاخرج الآن الى الملعب ودعنى أتدبر الأمر ولكن لايجب ان تذهب إلى المنزل قبل ان أراك

ـــ حاضر

ثم خرج هذا الصبي من المكتب وروحه المعنوية أسمى مما كانت . خرج وهو شاعر أنه انسان وان له خطراً

ودعوت المعتدى وسألته فى الموضوع . وحاول أن يكذب ولكنى جابهته بالحقيقة وأعلمته أنه يجب عليه أن يقول الصدق لأن هذا يجعلنى أن أعالج الموضوع على بصيرة . وأفهمته أيضاً أن المعالجة لاتعنى بالضرورة أن نعاقبه . لابل قد يمكن أن نفيده من حيث لايدرى . فاخبرنى بالحقيقة كلها . فقلت

اسمع . هذا جرم كبير وتستحق أن تطرد من أجله من هذا المعهد . وقد نفعل هذا لأن هذا هو رأيي الخصوصى ، وأغلب الظن أن هذا هو الذى سيكون . ولكن انتظر ساعة أخرى فاعطيك الرأى النهائى فى الموضوع . ولكن اسمع هذا وتدبره جيداً : إذا تقرر طردك من هذا المعهد فاياك ان تمس ذلك الصبي بسوء لأنى لن أدعك تفلت من القصاص مهما حاولت ، كفى اعتداؤك الفائت ولا يمكن ان أتسامح فى اعتداء جديد بشكل من الأشكال بعد أن تطرد من هذا المكان . هل انت فاهم ؟

ـــ نعم فاهم

ـــ اذن أخرج الى العابك وانتظرنى ساعة

ثم دعوت الصغير الى مكتبي وقلت

ـــ هل تحب قسم الصبيان ؟

ـــ نعم أحبه جداً

ـــ لماذا ؟

ـــ أحبه للألعاب المختلفة فيه ولحفلات الايناس التى نقيمها نحن وجميع المشاريع التى نضطلع بها أفراداً وجماعات ثم أحبه فوق كل هذا لأنك أنت فيه ، وأنت صديقنا الذى يصلح من أخلاقنا

— وهل حقاً يصلح هذا المعهد من أخلاق الصبيان ؟

— نعم بكل تأكيد . فالصبيان هنا يختلفون بأعمالهم وألفاظهم وتصرفاتهم عن الصبيان فى أى مكان آخر

— وهل يخسر الصبي اذا ماترك هذا المعهد ؟

— بالتأكيد

— قد يكون الأمر كذلك ولكنى فكرت فى مسألتك مع فلان وقررت أن أطرده على أى حال لان تصرفه معيب جداً ويستحق الطرد فى رأيى الخصوصى ، ولكنى مررت أن أترك مصيره بين يديك وانت تستطيع أن تنزل به العقاب الذى تظنه يتعادل مع ذنبه ، وأنا سأنفذ هذا العقاب ولو كان يقتضى طرده من المعهد وهو ماأرى أنه يستحقه . ثم أعلم هذا ، انى قد نبهته الى انه لايستطيع أن يعتدى عليك لأنى سأصل اليه حيث يكون وسوف أرى أنه ينال جزاءه الحق . وقد فهم هذا حق فهمه وقال انه لن يتعرض لك بشر مطلقا

والآن هو بين يديك لتقتص منه لهذا الجرم وسأتركك فى هذا المكتب ربع ساعة لتدبر الامر وسأعود كى انفذ ما تقضى

— سأفكر فى الامر

ثم خرجت وعدت بعد ربع ساعة لاسأله ماذا عول أن يفعل به فقال انه لم يصل الى حل بعد ويرجو أن اسمح له بعشر دقائق اخرى . فقبلت هذا بطيبة خاطر لانى شعرت انه فعلا يبحث المسألة بعقل وانه لم تطغ عليه عواطفه ولم تتدخل فى حكمه . لأنه لو كانت تحكمت فيه عواطفه لما احتاج الى هذا الوقت الاضافى ، وحكم العواطف بالطبع سريع حاسم

وعدت بعد عشر دقائق وقلت

— على ماذا عولت ؟

ـــ فقال عولت على أن اسامحه

ـــ لماذا ؟

ـــ لأن اخلاقه ستزداد سوءا بعد خروجه من هـــذا المعهد وبعد أن يفقد صديقاً مثلك يستطيع أن يرشده فى تصرفاته . فاذا طرد اين يذهب الا أن يقضى أوقاته فى الشوارع مع اناس اردياء ؟ انا اكره أن اراه يتسكع فى الشوارع من غير أن يجد من يرشده

ـــ لكنى اخبرته انى سوف اطرده

ـــ لكنك قلت ان امره متروك لى

ـــ هو كذلك وانا مستعد أن اقبل حكمك وانما اكره منه اعتداءه عليك ولا أحب أن يتكرر هذا الاعتداء

ـــ فليكن ، هذا افضل من التسكع على غير هدى

ثم خرجت الى الصبى وقلت له ـــ

ـــ لقد قررت ان اطردك من هذا المعهد ، فادخل واسمع حكم الصغير عليك

ثم دخل فاخبره الصغير بما قر عليه الرأى ، وأنه عفا عنه بعد أن كان فى استطاعته أن ينزل به اقصى عقاب فى مقدور المعهد أن ينزله ، فاعتذر الصبى حقاً وشكر الصغير على تسامحه معه ، ثم خرجا الى حيث كنت ويد احدهما فى يد الآخر ، ثم اصبحا صديقين حميمين يحترم احدهما الآخر ويحبه

وبعد مدة طويلة من الزمن قال لى الصبى الكبير أنه ما يزال نادماً على ما فعل حقا وانه يحاول أن يكفر عنه بتصرفه الحسن

ليست هذه الحالة من السهولة والبساطة بحيث نستطيع أن نقطع برأى فيها . فالعوامل فيها متعددة متباينة ، ولا يمكن للانسان أن يحكم فيها حكما يستطيع أن يدعوه صائباً من غير أن يصل الى اعماق النفوس ويكشف عما يشعر به الصبيان

ومالا يشعرون . فلا يستطيع الانسان مثلا أن يقطع برأى فى كل الدوافع التى حدت بالصبى الصغير لأن يسلك هذا المسلك ، لأن الاحتمالات فى هذا كثيرة فقد يكون الدافع عدة عواطف مجتمعة أو مجموع عوامل متباينة . قد يصح أنه سامحه خوفا ومداراة وهذا ما اردت أن احتاط له باعادة والطمأنينة الى نفسه فهل نجحت فى هذا أم لم انجح ؟ هذا ما لا استطيع القطع به . ثم قد يصح أنه سامحه لأنه يشعر حقاً انه خير لذلك الصبى أن يبقى تحت ارشادى وعنايتى ، وقد يكون الدافع له شعوره بأن هذا يرضينى

قد يكون أحد هذه هو الدافع الحقيقى ، لا بل قد تكون كلها مجتمعة ، وقد يكون أن الامر اختلط على الصبى ففعل هذا وهو لا يدرى فى الواقع لماذا يفعله وقد تكون الاسباب التى بنى عليها حكمه مستترة وراء عوامل اخرى يدريها أولا يدريها — كل هذه احتمالات وفروض قريبة للحق والواقع ، فمن يدرى ؟ لا يمكن لنا أن نصل الى الحقيقة وسط هذا التضارب بين الدوافع والحوافز — لا يمكننا أن نفعل ذلك الا اذا امتد نظرنا الى وراء الظواهر — وهـــذا بالطبع مستحيل علينا وعلى غيرنا

وكل ما يمكننا ان نزعمه الى درجة كبيرة من الصواب أن الصبى الكبير حفظ الدرس وشعر بما للصغير عليه من يد وأنه مدين له بكثير ، نستطيع أن نوقن بهذا الى درجة كبيرة ثم نستطيع أن نقرر ايضاً أن العلاقات بين هذين الصبيين كانت حسنة على طول الخط وان قليلا من الثقة بالنفس قد عاد للصغير منهما ، وان بعضاً من الاحترام لحقوق الصغير قد بدا يظهر على تصرفات الكبير

هل لارباب التربية أن يحللوا هذه الحالة ويدلوا على العوامل التى تكون قد غابت عن المؤلف ؟ اننا نرحب بأى رأى فى هذا الموضوع

الفصل الرابع

أثر الجماعة المنظمة فى الفرد

من أهم العوامل فى التربية الاخلاقية ان يؤخذ بيد الصبي ليشعر بروح الجماعة (Group Spirit) وليعتد بها ويقيم لها وزنا ، هذه الروح هى بمثابة الرأى العام فى دولة من الدول له من الأثر فى سياسة الجماعات وتصرفاتها مالا يمكن ان يدانيه شيء آخر . هذا الرأى العام هو الذى يسير السياسيين ويضع أشكال الحكومات ويرسم الخطط للنظم السياسية ، ويضغط البرلمانات فتتصرف تبعاً لذلك الرأى وتستنير به فى كل ماتزمع الأخذ به ، هو العامل الذى يرجح نفوذه فى كفة الميزان متى شاء شالت كفة ذلك الميزان ومتى شاء حطت

وليس هذا فقط ولكن للرأى العام القول الفصل فى الفضائل العرفية والاخلاق التى تواضع عليها الناس . فما يحمده ذلك الرأى هو الذى يسير فى أقليم بذاته وما يتجهم له ينعدم ويندثر بغض النظر عن علاقة هذا الشيء بالفضائل الحقة وبغض النظر عن انطباقه على قواعد العقل والمنطق أو عدم انطباقه على تلك القواعد ، فمتى كان تصرف بذاته مكروهاً من جماعة معينة فسوف يندثر هذا التصرف على مرور الزمن مالم يتغير رأى الجماعة فيه بشكل من الاشكال ، وبعبارة أخرى أن تقدير الجماعة لازم للفرد ، والفرد يسعى اليه بكل الطرق الممكنة المشروع منها وغير المشروع فى بعض الحالات ، ومتى وجدت لصاً فاعلم ان هناك فى تاريخ حياته جماعة يهتم لرأيها فيه قد رضيت منه هذا المسلك على أقل تقدير ان لم يكن قد امتدحته عليه

والصبي على الخصوص يهتم لرأى جماعة الصبيان فيه ـ تلك الجماعة التى يتصل

بها أشد اتصال ، ويسعى بكل مايملك من قوة لينال رضاها وتقديرها . قد تثور فى نفسه عناصر الفردية والذاتية ، وقد يقاوم الجماعة لنزوة طارئة ولكنه لن يستمر فى هذا ، ولن يصر عليه مادام متصلا بتلك الجماعة بذاتها ومنتمياً اليها لأن هذا لايتفق مع ماهو معلوم عن طبائع الاطفال خاصة والناس عامة ، فالقاعدة العامة هى أن الفرد يحاول أن يرضى الجماعة فى الاحوال العادية . ويقيم وزنا لرأيها فيه . ويسعى جهده لان يكون هذا الرأى مما يرضاه ويحبه

هذا بالطبع لايتفق مع ماهو معلوم عن الزعماء . فالزعيم أيضاً يهتم لرأى جماعته فيه ويسعى جهده لان يكون هذا الرأى حسناً مقبولا . وانما يمتاز الزعيم بأنه يستطيع أن يؤثر فى الجماعة بشكل يعجز عنه الافراد العاديون ، وبمعنى آخر يستطيع ان يكيف الرأى العام تبعاً لما يريد ويهوى . فهو منفرد فى هذا دون باقى الناس

فالصبى اذن يهتم كل الاهتمام لرأى الجماعة فيه ، ويقدره بأكثر مما يقدر رأى المربى ، والواقع انه لو تعارض رأى المربى ورأى الجماعة فسيتبع الصبى رأى الجماعة إلا إذا كان يخشى المربى ويخافه . ويتنج من هذا إذن انه يحسن بالمربى ان يستعين برأى الجماعة على تقويم أخلاق الفرد ، وهو لابد واجد ان هذه الاداة هى من أحسن مايستطيع ان يستنبط لهذه الغاية . فمتى استطاع ان يوجد رأيا عاما وروحا خاصا بالجماعة فسوف تكون هذه الجماعة أول من يفعل اذا شذ فرد منها أو خالف الروح العامة بشكل من الاشكال . أما اذا كانت روح الجماعة لاتتفق مع مايرمى اليه المربى فقد لايستطيع ان يفعل شيئا مع الفرد ، لابل من المؤكد أنه سيعجز عن أن يؤثر فى الفرد ، ثم أنه سوف يجد نفسه وجها لوجه أمام جماعة متحدة يشد بعضها بعضا فتسدر فى الخطأ والضلال

لقد اختبر المؤلف هذه الروح ، فكان يجدها فى كثير من الحالات ، وكان

يحاول أن ينتزع الصبي من تحت نفوذها ثم يعالج خطأه . ولم يكن هذا أمراً سهلا أو مأمون العواقب ، وصعوبته ظاهرة لاتحتاج الى شرح وإيضاح لأننا ذكرنا شيئاً منه فيما سبق . وبينا ان الصبي يفضل أن ينال رضاء جماعته من أن يخضع للمربي فيما لايوافقه أو يروقه

وأما أن المربي يحاول أن ينتزع الصبي من تحت نفوذ الجماعة فهذا غير مأمون العواقب ، ذلك لأن السبيل المتبع عادة معروفة معلومة وهي أن يأخذ الصبي على انفراد ، ويكلمه ، وبالطبع لايخرج كلامه عن معنى واحد معلوم مهما تعددت صيغ الكلام وأشكاله ، ومحصل مايقوله للصبي هو هذا : « هذه الشلة بطالة ، وهي تضرك ولا تنفعك ، فيجب ان تنقلب عليها وتخونها » بالطبع نحن لا نزعم ان هذه هي الألفاظ التي يستعملها المربي ، وانما نقول ان هذا هو محصل الرأي في آخر الأمر ، ولا نرى ان لتصرفه معنى غير هذا

ولهذا بالطبع أثر سيء في أخلاق الصبي لأنه يدفع به الى الفردية والذاتية اللتين نريد ان ننقذه منهما ، وليس يغيب عن اذهاننا أن الخلق شيء اجتماعي لا يقوم إلا على علاقة الفرد بجماعته ، ومتى كان أثره للخير فهو خلق فاضل وأما ان كان أثره يتجه للشر فهو خلق سيء . لقد شرحنا هذا فيما تقدم من هذا الكتاب ونحن لاننوي أن نعود له هنا ، وانما نحب أن نقول ان الجماعة الراقية المهذبة القوية هي التي تستطيع أن تجعل لرأيها وزنا عند الافراد وتضطرهم لان ينزلوا عند هذا الرأي ويحترموه ، واذا لم تكن كذلك ، أي اذا لم تكن قوية ومهذبة وراقية ، فقد توافرت بينهما أسباب الفوضى ، وبعبارة أخرى ان الفوضى توجد حيث لايوجد رأي عام مسموع الكلمة نافذ في الافراد

واذن فهذا الطريق غير مأمون ، وقد ينتج عنه اضرار بالغة ويتسبب عنه نقص

فى أخلاق الافراد . ذلك لأنه يضعف الرأى العام ويقوى الذاتية والفردية ويقويهما ويعمل للفوضى . ولا عاصم للاخلاق فى الفوضى . وعلى هذا يحسن بالمربى ان يتجه لروح الجماعة وللرأى العام ليكسبه لجانبه أولا ثم يتجه للفرد فيعالجه مستعينا بهذا الرأى العام . بهذا يكون قد خدم الاجتماع . وخدم أخلاق الفرد . ومهد السبل للقضاء على الفردية البغيضة المزدولة . ثم يكون قد أخذ بأسهل السبل لاصلاح أخلاق الصبي

قلت انى كنت أعالج الفرد على حدة وخصوصا متى كان مشتبكا مع الجماعة فى المصالح ومتفقا معها فى الرأى ، فكنت أدعوه الى مكتبى وانحدث اليه كفرد وأقنعه بخطأه . وكان عند ما يحتج بباقى اخوانه . أقول ، مالنا وللباقين ، وهل اذا أخطأ الباقون تخطىء أيضاً ؟ كلا يجب ان تتجنب الخطأ أين كان وبغض النظر عن علاقتك بالجماعة ، ثم اذا فرغت من هذا الصبي ادعو غيره وأفعل معه كما فعلت مع هذا . وهكذا الى ان آتى على آخر الجماعة . وبالطبع كنت انجح مع بعض الصبيان وليس مع البعض الآخر ، واما من نجحت معهم فلم اكن اثق بنجاحى الى النهاية لأن بعضهم كان ينقلب بمجرد ان يخرج من مكتبي ويتصل بجماعته مرة أخرى

وأخيرا وجدت بالاختبار والتأمل ان مثل هذه السياسة فى جوهرها غير ملائمة لانماء الروح الاجتماعى الذى اسعى لانمائه ، فهى لاتخرج عن أنها تعمل لتفكيك الجماعات واضعاف الرأى العام ، وانهاض الفردية البغيضة والذاتية من مرقدهما . وبالطبع هذا بالذات هو ما اكره أن أفعل مهما كانت النتائج لأنى قد وضعت أمام عينى غاية واحدة أسعى اليها ، وهذه الغاية هى تقويم اخلاق الصبيان بغض النظر عما اذا كنت مستطيعا أن أحملهم على اتباع ارشاداتى أولا استطيع

فبعد أن وصلت الى هذه النتيجة من التفكير ، قررت أن اعالج الجماعة كجماعة أيضاً وأن أحرص على أن أبقيها متحدة الكلمة مجمعة على رأى واحد فى جميع

الظروف ، ثم احاول أن أحملها كجماعة لها رأى عام متحد على ان تنهج طريقاً معقولا . أما اذا عجزت فى حالة بذاتها انتظر فرصة اخرى تكون أكثر ملائمة لتحقيق الغاية التى اسعى اليها

وعلى هذا فقد نظمنا اعضاء قسم الصبيان فى جماعات . كل منها لها غرض واحد مشترك وغاية تسعى الى تحقيقها . فاوجدنا ناديا لكرة السلة وآخر للكرة الطائرة وآخر للتمثيل ، وآخر للاشغال اليدوية وآخر للرحلات وهكذا الى آخر هذه الجماعات . ولكل منها رئيس وموظفون واعضاء . وانا بالطبع عضو فى جميع هذه الهيئات ، ثم اطلقت لهم الحرية فى اختيار الموظفين وترتيب النشاط وتوقيته ، فتجتمع كل جماعـــة في الموعد الذى تريد وتنشط حسب الانظمة الداخلية التى وضعتها لنفسها

وكان ان جماعة كرة السلة قررت أن تعقد مباريات مع بعض المدارس المختلفة فخاطبت بعض تلك المدارس واتفقنا على مواعيد معينة نتبارى فيها صبياننا . وأزف موعد احدى هذه المباريات وحضر الفريق فى هذا الموعد . واستعد فريقنا للنزال ووقف الجميع فى اماكنهم المعتادة ، كل هذا واحد اعضاء فريقنا لايزال خارج الملعب واقفا ينظر فى الفضاء ، فتقدمت اليه وسألته لماذا لم ينزل الى الميدان ؟ فقال

ـــ لا أريد ان العب اليوم

ـــ لماذا ؟

ـــ ليس عندى سبب

ـــ اذن يحسن ان تنزل

ـــ كلا لا اريد

ـــ وفريقك

ـــ ماله ؟

اتتركه يلعب ناقصا ؟

— ولم لا ؟

— لأنه يعوزه فرد

— يستطيع أن يلعب من غير هذا الفرد

— لكن هذه خيانة للفريق

— كيف ذلك ؟

— ذلك لأن الفريق كان يظن لآخر لحظة انك ستنصره على من ينازله ، وله حق فى هذا الظن لأنك عضو فيه ، وقبولك لهذه العضوية هو تعهد بطريق غير مباشر لأن تنصره فى كل نضال يدخل فيه فانت الآن تنكث بهذا العهد وتخون فريقك خيانة قبيحة ، تخونه وهو فى احرج المواقف

— لست خائنا ثم لا اريد أن العب اليوم

الحق اقول انى استأت أشد الاستياء واخذ الغضب يتملكنى ، وشعرت أن الموقف يتطلب عملا حاسماً واخذت افكر فى هذه الحالة الشاذة فعرضت لى جملة حلول وكنت امحص كل حل ، ومتى تبين لى أن فى احدها علة اطرحه جانبا واتناول غيره بالتمحيص والتحليل ، فقد عرض لى أن آمر هذا الصبى بأن ينزل الى الميدان واغلب الظن أنه كان يفعل ولكن هذا التصرف كان يترك اثراً فى نفس الصبى ولا ، وكان ينقل المسألة ثانيا ، كان ينقلها من وضعها الى نزاع شخصى بينى وبينه فكأنه فى هذه الحاله يكون اخطأ فى حق انا وانا الذى يرد الامور الى نصابها ، هذا فى حالة صدوعه بالامر ، اما اذا قاوم الامر وعصانى فتصير المسألة نضالا بين الصبى وبينى ، والنضال بين الصبى ومربيه هو آخر ما يجب أن يفكر فيه المربى وفى حالة عصيانه بالطبع كنت اشعر بالاهانة تلحقنى انا شخصيا فكنت انفعل واعاقبه بالطرد مثلا — أى نعم اعاقب واقتص ولا اربى واقوم الاخلاق ، جالت

كل هذه الامور بخاطرى فقررت أن ابقى المسألة كما هى ولا اجعلها تتطور الى شر من ذلك . ووضع المسألة كما هى الآن هكذا : أن الصبى هرب من الميدان لسبب لا يريد أن يبوح به أو بغير سبب على الاطلاق ، وان هذا التصرف يعد خيانة للجماعة التى ينتمى اليها ، وأن المسألة بين الصبى وبين جماعته ليحلوها على ما يشتهون ويرغبون ، ولا تنس ايها القارىء انى عضو فى هذه الجماعة ولى رأى فى مسائلهم ، فهناك اذن الضمانات الكافية على أن الامور ستسير فى سبيل قويم ، ولهذه الاسباب قررت أن اترك المسألة حيث هى فلا انقلها من موضعها . فقلت :

ـــ اذن انت تصر على أن تترك فريقك فى هذا الموقف الحرج من غير أن تنصره

ـــ نعم هذا ما قررت

ـــ فليكن

ثم تركته فى مركز لا يغبط عليه وذهبت الى مكانى وجلست انتظارا لما سيكون وتلفت زعيم الفرقة ليرى كل واحد فى مكانه فوجد ان فريقه ينقصه واحد فطلب الى الحكم أن يعطيهم مهلة وخرج من الملعب واتى الى وقال :

ـــ ينقصنا واحد

ـــ الا يوجد احد من فريقكم هنا ؟

ـــ هنا فلان ، ولكن لماذا لا يريد أن يلعب ؟

فلو اجبت على هذا السؤال الجواب الكافى لانصرف الزعيم الى اللعب وترك المسألة انتظاراً لما سأفعل أنا ، وبمعنى آخر لو قلت أنه لا يريد أن يلعب والسلام لشعر وشعرت معه الفرقة أن هذا التصرف له ما بعده عندى وانى سأفعل شيئاً . سأقتص من ذلك الصبى أو اعاقبه بشكل من الاشكال ، وقد يجوز أن يكون القصاص مثلا أنه لا يلعب مع هذا الفريق ، وقد يجوز ان الفريق يشعر أن هذا الصبى قدير فى اللعب فيطلب الى ان اغير نوع القصاص ، وبالطبع ان لم افعل

فسوف يكون الرأى العام لهـــذا الفريق مختلفاً مع رأيي وتكون الظروف قد ساعدت هـذا الصبي على أن ينجو على اهون سبيل ، لست مغالياً أو متعسفاً فى هذه الفروض لأن كل من له المام بطبائع الصبيان يستطيع أن يرى انها محتملة كثيراً ــ لهذه الاسباب جميعاً قلت للزعيم :

لا اعلم الاسباب فاسأله انت

فذهب اليه وتحادث معه على مسمع منى وان كنت تظاهرت بأنى متغافل عنهما ــ قال الزعيم

ــ انزل يافلان الى الميدان

ــ لا اريد ان انزل

ــ لماذا ؟

ــ لغير سبب ، لا أحب ان العب اليوم وكفى

ــ هذا كلام فارغ ، اتتركنا فى هذا المركز الحرج ؟

ــ لا اريد ان العب ، أأنت شريكى ؟

ثم علت اصواتهما قليلا . وحضر جميع أعضاء الفريق ليروا السبب فى هذا الاختلاف . حضروا وسألوا بالطبع ، وكان جواب الصبي واحدا لايتغير ــ وهو أنه لا يريد أن يلعب ــ فثار أعضاء الفريق واغلظوا له فى القول وتحرج مركزه كثيراً وساء ، وشعر أنه خاسر فى هذا النضال الذى تتألب فيه الجماعة على الفرد ، واخذ القلق والحيرة يساورانه ، ولـكنه كابر وأوغل فى المكابرة ــ كل هذا وأنا جالس أصغى اليهم واتغافل عنهم الى أن شعرت ان الرأى العام قد تكون فى هذه الحادثة بالذات ، ذلك لأن أعضاء قسم الصبيان الخارجين عن هذا الفريق اخذوا ينصرون الفريق واخذوا يكيلون اللوم لهذا الصبي ، تغافلت الى أن شعرت بهذا أولا ثم شعرت بأن الصبي نال جزاءه الذى يستحقه ثانياً ، وأن

الحالة تسوء إذا لم أتدخل ثالثاً . تسوء الحالة لأن الجماهير لاتتحكم فى عواطفها متى ثارت فيكون عقابها انتقاماً وليس حكماً بالعدل — لقد حان اذن موعد تدخلى فتدخلت

ذهبت الى حيث هم وسألت ما الخبر ؟ فقالوا أن هذا الصبى يرفض أن يلعب ويعاون فريقه من غير أن يقدم اسبابه لهذا الرفض — هذا قبيح — هذا مريع هذه خيانة عظمى . . . . هذا كنود . . . . . فقلت كفى . انزلوا الى الميدان والعبوا وناضلوا اشد نضال تستطيعونه . وبعد اللعب اقضوا فى أمر هذا الصبى قضاءكم فقالوا

— أى نعم نتزل الى الميدان ونلعب دونه . . هلموا ياإخوان هلموا الى الميدان ونزلوا . ولعبوا . ولست أذكر اذا كان فريقنا قد انتصر أم غلب على أمره ولكنهم لعبوا على أى حال وأبلوا بلاء حسناً

وبعد اللعب مباشرة . وبعد ان حيوا الفريق الزائر بالهتافات المعروفة حضر إلى الزعيم وقال

— هذا الصبى لن يلعب معنا ، يجب ان نفصله ونضم غيره

— فقلت لاتتعجل ، انتظر ريثما يجتمع الفريق فى مواعيد اجتماعه وأبحثوا المسألة

— حسن ، سنفعل هذا ولكن الا ترى معنا انه أساء الى فريقه بهذا الهروب المزرى ؟

— نعم ارى هذا الرأى فاطمأن من هذه الناحية

— اذن سادعو الفريق للاجتماع فى موعده المحدد وأطرح عليه هذه المسألة

— هو كذلك

وفى الموعد المحدد اجتمع الفريق ، وكانت العواطف قد هدأت نوعا ما ، وقرر ان هذا الصبى يفصل من الفريق الا اذا كان يشعر انه اخطأ فى هذا التصرف ثم وكلوا الى التحدث اليه ، ففعلت ورجعت اليهم بالخبر فى الاجتماع الثانى

وكان ان الصبى اعتذر لفريقه ، وكان ان الجماعة عفت عنه

الفصل الخامس

الآباء والأبناء

الغرض من قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية هو ان يستغل أوقات فراغ الصبيان خير استغلال لفائدتهم الأدبية والبدنية والعقلية وهذا المعهد هو الاداة لتنظيم أوقات فراغ الصبي ، وتوفير العوامل والمؤثرات التي تفعل في نفسه حتى توجهه في الطريق الذي يؤدي به إلى ذلك الغرض

فكل ما من شأنه أن يقف في سبيل هذه الغايات مجتمعة أو متفرقة لامكان له من أنظمة هذا المعهد ، لان كلا منها تستوى لدينا في الاهمية مع غيرها . فاذا تعطل نمو الصبي العقلي أو البدني أو الاخلاقي نرجع في الحال الى وسائلنا فنغربلها ونمحصها لنطرح منها مايعطل أو يساعد على التعطيل ، وبمعنى آخر ان النمو الاخلاقي أو البدني لايجب أن يحول دون قيام الصبي بواجباته المدرسية خير قيام ، لابل نحن نوقن ان هذه جميعاً مرتبطة بعضها برباط وثيق وان الاخلاق السامية والبدن السليم يجب أن يكونا عاملين في تقوية الصبي من الناحية العقلية وفي مساعدته على الاضطلاع بمسئولياته المدرسية على أتم وجه

نحن نؤمن بهذا ونؤكد أن التجارب التي أجراها علماء التربية في الغرب تدعم هذه النظرية ، ونشعر أن القارىء لايطالبنا بأن ننقل له مايقول هؤلاء لأننا نشعر أن هذه القضية في حكم البديهات ، ونظن أن رجلا كائناً من كان لاينكر ان الجسم السليم والاخلاق القويمة يساعدان على حسن قيام الصبي بتلك الواجبات ، ولم نقرأ فيما قرأنا ثم أننا لم نسمع فيما سمعنا أن الجسم السليم والاخلاق القويمة معطلان للأعمال المدرسية بأي حال من الاحوال . فهذه اذن قضية مفروغ منها

ولكننا نعلم فى نفس الوقت ان اللعب يستنفد الوقت بشكل عجيب ويبتلعه ابتلاعا ، وان الصبيان مغرمون باللعب ، وأنه لو ترك لهم الحبل على الغارب لنسوا ماعداه من الواجبات الملقاة عليهم ، فاللعب من طبيعته لذيذ والصبيان من طبيعتهم لايشبعون منه ، فيجب اذن أن يحرص المربون على أن يقيموا الحدود للصبيان فلا يعود اللعب يستهويهم ويجعلهم ينسون كل اعتبار آخر غيره ، وليس يعنى هذا بالطبع أن يحاول المربى أن يمنع الصبى منعا باتا أو يكاد يكون باتاً من اللعب لأن هذا أكثر ضرراً من غيره ، ومثل من يفعل هذا كمثل من يمنع الطفل عن الأكل منعا باتا لان بعض أنواع الطعام تضره ، أو يجيعه ولا يعطيه غذاءاً كافيا لان البطنة تسبب له الامراض ، فالتخمة وقلة الغذاء يستويان فى أن كلا منهما عيب يجب تلافيه ، فليست السبيل السلبية دائما آمن السبل

واذن يجب ان نقتصد وأن نعتدل فيما نفعل وفيما نترك ، ويجب أن لانسلك أسهل السبل دائما لان السهولة فى ذاتها ليست دليلا للشىء أو عليـــه ، وهذا بالضبط مايحاول قسم الصبيان أن يأخذ به مع الذين يلتحقون به ، فبرنامجه موزع توزيعا متناسبا بين أنواع النشاط من بدنى إلى اجتماعى إلى أخلاقى إلى عقلى ، والصبيان يساهمون بقسط فى جميع هذه المناحى من غير ارغام أوقهر ، وبمعنى آخر ليس الصبى مضطراً لان يشترك فى هذه جميعا وانما نحاول أن نجعلها جميعا مشوقة ولذيذة بحيث تستدعى انتباه الصبى وتغريه على الاقبال عليها والمساهمة فيها

وفى نفس الوقت ليس هذا المعهد مدرسة أو بيتاً ، ولا يحاول أن يكون كذلك ، وبمعنى آخر لا يرمى الى الاضطلاع بمسئوليات هذين المعهدين تلقاء الصبى ، ولايحاول أن يحل محلهما فيما يؤديانه له ، وانما كل مايضطلع به هو ان يقدم للصبيان البيئة التى لايجدونها فى هذين المعهدين والتى لاتسمح الظروف بوجودها فيهما ، فهو متمم لهما ، ويجب أن يتعاون معهما على خير الصبى من كل الوجوه ،

وهو فى الواقع يستطيع أن يخدمهما خدمة كبيرة فى هذا الباب لأن له من الوسائل مايجعله أقدر فى بعض الحالات على أداء مثل تلك الخدم التى يحتاجها الصبيان ، ونظن ان فى مامر بالقارىء من أبواب هذا الكتاب مايكفى لاثبات هذه الحقيقة

فليس هذا المعهد اذن ناديا بالمعنى المعروف من هذه الكلمة ، أى انه ليس مكانا للصبيان فيه يلعبون ويمرحون وكفى ، نعم انه يؤدى هذه الوظيفة خير اداء ، وله من خبرته ومن المضطلعين به الاخصائيين فى هذا الباب مايجعله أقدر من أى ناد آخر على خدمة أبدان الصبيان ، ثم ان نشاطه فى هذا الباب متنوع النواحى متعدد الجوانب بحيث يستطيع أن يتناول مختلف الأمزجة والكفاءات والاستعدادات الجسمية فى الصبى وينميها ويصل بها الى درجة بالغة فى التقدم والاضطراد ، وعلاوة على ذلك لا يعالج الصبيان بطريقة آلية ، فلا يخضعهم لأنظمته ويدفع بهم للالعاب المختلفة بغض النظر عن الفروق الفردية والحاجات المتباينة التى لايكاد الصبيان يتفقون فيها وبمعنى آخر ان هذا المعهد لايسير على الزعم المغلوط ان مايحتاجه هذا الصبى بالذات هو مايحتاجه غيره وغيره الى آخره ، وانما يسير على سياسة مستنيرة تقتضى أن تبحث حالة كل صبى على حدة من الوجهة البدنية ويقدم له مايظن الاخصائيون أنه يحتاجه ويعوزه ، فهو اذن يتبع الطريقة العلمية فى معالجة أعضائه من نقائصهم البدنية ، وقبل أن يرسم للصبى نظاماً رياضيا يسير عليه ، يكشف عن هذا الصبى كشفاً رياضيا ليتبين حالة جسمه ، ثم يقدم له العلاج الرياضى اذا كان يحتاج الى مثل هذا العلاج

وبعبارة أخرى هو لايفتح أبواب الملعب للصبيان ويتركهم وشأنهم ليلعبوا مايحلو لهم وينشطوا بالطريقة التى تروق فى أعينهم ، وهو لايسلمهم الى الصدفة العمياء لتوجه جهودهم ونشاطهم الى الوجهة التى تروقهم ، بل يعمل بتفكير ورويّة وبرأى مستنير ، يعمل وهو يدرى مايعمل ولماذا يعمله وكيف يعمله

ومع هذا فليس قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية ناديا بالمعنى المفهوم من

هذه الكلمة كما نوهنا سابقاً . وانما أظن انه معهد يحاول أن يقدم للصبي بيئة مستكملة الشرائط للنماء من جميع وجوهه — بيئة تكون العوامل فيها مرتبة مدبرة ومبحوثة ومفكر فيها حتى تستفز منه بعض أنواع النشاط المطلوب . ثم يراقب استجابات الصبي لهذه العوامل ويدونها حتى تستبين آثارها في حياته

ومع كل هذا نجد ان بعض الآباء لا يرون رأينا ولا يوافقوننا فيما نذهب اليه في هذا الصدد . والحق أن لهؤلاء بعض العذر في ترددهم في قبول وجهة نظرنا لأنهم بحكم تربيتهم وبحكم البيئة التي يعيشون فيها ليسوا في الواقع اهلا للحكم في هـــذه القضايا التي تحتاج الى اطلاع كبير على شئون التربية الحديثة ونظرياتها . ونظن اننا نكون متعسفين لو طالبنا هم بهذا الاطلاع لأن للتربية اربابها الذين يتتبعون تطوراتها . وأما الآباء في مجموعهم فلهم شئون اخرى في الحياة يحسن بهم أن يولوها التفاتهم ولكننا في نفس الوقت نرجو من المربين أن ينيروا الطريق ويصلوا ما بين بعض مبادىء التربية وبين الرأى العام في مجموعه . وبمعنى آخر يجب أن يعملوا بكل ما يملكون من جهد على نشر ثقافة عامة تكون معينة للاباء على معالجة اطفالهم بشكل مستنير نوعا ما

نقول أن بعض الآباء معذورون في عجزهم عن أن يروا كل هذا دفعة واحدة كما نراه نحن . لا يستطيعون أن ينظروا اليه نظرة شاملة محيطة . ولكنهم يرون بعض العوامل بارزة ، ويكون بروزها مدعاة لأن لا يروا غيرها من العوامل التي قد تعدلها في الاهمية والمكانة . وعلى هذا فبعضهم يشك في فائدة مثل هذا المعهد وان كان المتشككون قليلين والحمد لله — ولكن هؤلاء يلحقون ابناءهم بالمعهد ويوصوننا بهم من جهة الدروس والمدرسة . زاعمين أن انضمامهم قد يؤثر في سير الدروس

ونحن من جانبنا نحب أن نعرف من الأب عن الصبي لأن هـــذا يعيننا في

مأموريتنا ويسهل علينا الاضطلاع بها . ثم نحن من جانبنا نفهمهم بعض انظمة قسم الصبيان التي تهمهم . وما يهمهم منها هو هذا . ان هذا المعهد يفتح ابوابه من الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر الى الساعة السابعة مساء كل يوم من ايام السنة الدراسية وفي العطلة الصيفية تفتح ابوابه من ٩ الى ١١ صباحا ثم من ٥ الى ٨ مساء ، وبهذا النظام نحرص على أوقات المدرسة بالطبع . وليس هذا فقط ولكننا نحب أن لا يحضر الصبي الى المعهد كل يوم لأننا نشعر انه في الواقع لا يحتاج الى كل هذا الوقت في المعهد . وانما نشعر انه يحتاج الى ان يحضر الى المعهد مرتين أو ثلاثا على الأكثر في الاسبوع ولا يمكث معنا أكثر من ساعتين في الدفعة الواحدة ، وهذا يكفيه لأن يروض جسمه ويقويه ويروض نفسه فترتاض . ثم أن لكل عضو عندنا تذكرة تنتزع من مكانها عندما يدخل ويوضع عليها تاريخ حضوره . وبذا نستطيع ان نعرف كم مرة في السنة حضر الى قسم الصبيان وفي أي تاريخ أن شئنا حتى يتسنى لنا أن نضبط أوقات الصبيان ونمنعها ان تضيع وتتشتت ، ويستطيع أي آب ان يسألني ، هل حضر ابني في يوم ١٠ يناير سنة ١٩٣٠ أو ١٩٢٩ ، أو كم مرة حضر في شهر يناير مثلا من السنة الفلانية ، ويمكنني أن اجيبه عن هذا في الحال . بعد هذا البيان اسأل الاب كم مرة يجب أن يصرح لابنه بالمجيء الى المعهد ، وكم من الوقت يجب أن يبقى . فبعض الآباء الذين يعرفوننا ويثقون بنا يتركون هذه المسألة لي كل الترك ، وأنا ادبرها بالطريقة التي اظنها تنفع الصبي في دروسه واخلاقه وصحته

وأما بعض الآباء فيدلوننا على رغباتهم ويشيرون علينا بما يرونه يتفق مع نجاح الصبي في دروسه كأن يحددوا لنا عدد المرات التي يجوز فيها للصبيان أن يحضروا الى المعهد . وبالطبع نتفاوض في الامر معهم ونتفق ، ثم اننا نسير بمقتضى هذا الاتفاق

حضر الى مكتبي احد هؤلاء الآباء وقال

ـــ حضرتك فلان ؟

ـــ نعم

ـــ لقد سمعت بما يقوم به معهدكم للصبيان من الخدمات . وعندى صبي أريد أن الحقه بمعهدكم اذا كنتم تقبلونه

ـــ نحن نقبل الصبيان بشروط

ـــ وما هي ؟

أولا أن تكون سن الصبي من ١١ الى ١٥ سنة فقط

ـــ هذا متوافر لصبينا

ـــ ثانياً ان يكون الصبي وأبوه موافقين على انضمامه لمعهدنا . وبمعنى آخر نحن لا نقبل صبياً هو أو أبوه معارضا فى هذا القبول

ثالثاً أن أقابل الصبي نفسه على انفراد وتتحدث بعض الوقت حتى استطيع أن أفهم بعض نواحى حياته وشيئا من نفسيته لأرى هل يستفيد من الالتحاق بهذا المعهد أم لا يستفيد

ـــ فقال سيحضر اليك بأقرب فرصة لتحادثه

ـــ اذن نحن متفقان

ـــ مهلا فلي بعض الملاحظات احب ان انبهك اليها

ـــ تكلم

ـــ هذا الصبي مغرم باللعب ، عفريت قد اعيتنا فيه الحيل

ـــ كيف ؟

ـــ أولا ـــ تراه شعلة حركة ونشاط ، لا يستكن لحظة أو يهدأ ، ثم أنه كالقرد لا يترك شيئا فى مكانه ، ولا يتركنا مستريحين لحظة ، ومادمت فى البيت

فلا انقطع عن النواهي والأوامر التي تستدعيها تصرفاته

ـــ معنى هذا أن الحيوية فائضة فيه ، وأن نشاطه غزير متوافر ، وأنه في حاجة الى بيئة يصرف فيها هذا النشاط . وهذا لا يزعجني كثيراً لأنه دليل على أن هذا الصبي يستطيع أن ينتفع بنظامنا وأن يفيد منه فائدة كبيرة ، وبعد فالوسائل متوافرة لدينا بحيث نستطيع أن نوجه هذا النشاط الى الوجهة التي نريد . فالامل اذن في أمثال هذا الصبي كبير

ـــ وهناك شيء آخر أريد أن أوجه اليه نظرك وهو أن ابني مغرم باللعب كما قلت لك ، مغرم به بشكل يجعله يضحي بدروسه في سبيله ، وكان من نتيجة ذلك أنه فشل في امتحاناته في الدور الماضي . وفي الحق أني اجد نفسي عاجزا عن أن أجعله يحصر فكره في الدروس بشكل جدي ، فما أكاد أحول نظري عنه حتى يلقي بالكتاب جانبا ثم يلعب ، وبعبارة اخرى لا يجلس الى مكتبه ويفتح كتبه إلا اذا كنت أنا في البيت بجانبه أراقبه وأدفعه للدرس . أما اذا لم أفعل ذلك فهو دائما أبداً في الشارع يلعب ، والآن أنا أخشى من التحاقه بهذا المعهد من هذه الوجهة لأنه سوف يحضر هنا كل يوم بعد المدرسة ليلعب ، وهذا مالا أحب أن اراه بشكل من الاشكال

ـــ في هذا المعهد نحن نضبط الحضور ونقبل الصبيان فيه بحساب وتقدير ثم أننا نحصر على الورق عدد المرات التي يأتون فيها الى هذا المعهد ، ونستطيع أن نتصرف في هذا بالشكل الذي يوافق الآباء ، ولن يتمكن ابنك من الدخول إلا في الايام التي تحددها ، فكم مرة في الاسبوع اذن تريده أن يحضر هنا ؟

ـــ اصرح له بالحضور يومي الخميس والجمعة بعد الظهر فقط . واما ماعدا ذلك فلن أقبله

ـــ اذن ـــ اعطني مهلة حتى ارى الصبي واتحدث اليه بهذا الشأن

ـــ وماذا له بهذا الشأن ؟ هذا شيء نقرره نحن وما عليـــه الا أن يخضع لقرارنا . ألا تعلم بأنه يجب على الآباء ان يحكموا الصبيان بيد من حديد !

ـــ كلا لاأعلم ذلك ، ونحن فى هذا المعهد لانفعله ولا نفعل مايقرب منه . وانما نتفاوض مع الصبيان فيه مفاوضة حرة من كل قيد ونريهم جميع العوامل التى تدخل فى الموضوع ثم نجعلهم يحكمون لانفسهم ، فان اختباراتنا الماضية تدلنا على أنهم يحسنون التقدير اذا كان المربى عادلا معهم . واعلم من الآن انى لاأنفذ نظاما فى الصبى لايقبله برضاه وبمطلق حريته . وما عليك من ذلك ؟ الم تضع النظام بنفسك ؟ فانتظر لنرى هل يقبله الصبى أم لا ؟

ـــ لابد ان يقبله راضيا أم مكرها

ـــ اذن فانتظر ، فقد يقبله راضيا ونكون قد وفرنا على أنفسنا عناء نحن فى غنى عنه ، ونكون قد ساعدنا على تكوين أخلاق الصبى أيضا اذ جعلناه مسئولا عن نفاذه الى حد ما . فهذا أحسن أساليب التربية

ـــ حسن . فليكن لك ماتريد من الوقت

فى هذا الحوار بينى وبين هذا الوالد يرى القارىء تصادم نظريتى التربية ، فالآب يسير على النظرية القديمة التى تقوم على الارغام والقهر ، والصبى فى رأى هذه النظرية مجرد من كل عوامل الصلاح والاخلاق ، وطبيعته شريرة بالفطرة ومتمردة بالطبع ، وعلى هذا فيجب ان يحكم بيد من حديد وان يساق سوقا الى الاخلاق المرضية ، ويحمل كرها على الرضاء بما يستنه له المربى . وسواء لدى هذه النظرية أن يوافق الصبى على النشاط المرغوب أم لايوافق ، وسواء لديها أفهم الغرض والغاية من هذا النشاط أم لم يفهم ، وكل ماهو مطالب به هو ان ينشط وهو مغمض العينين واثقا من نيات المربى نحوه ، وليس هذا فقط ولكنه مطالب أيضا ان يضرب برغائبه عرض الافق ، لابل يجب ان لاتكون له رغائب أو

سيول فى عرف هذه النظرية ، وثمة شيء آخر ينكره هذا الضرب من التربية على الصبى . وهو الارادة ، ففى مثل هذا النظام ليس للصبى ارادة بالمرة الا فيما يوافق أهواء المربين . وأما فيما عدا ذلك فالصبى آلة صماء يضغطها المربى فتدور بالشكل الذى يرغب فيه

وبعض الآباء والمربين لايفكرون فى مثل هذه الامور ولايحللونها كما حللناها الآن ، وانما يتصرفون على البديهة من غير تفكير ، وتصرفهم يقود الى مثل هذه النتيجة وهم لايشعرون . ولكن بعضهم يفكر أيضا ويصل فى تفكيره الى مثل هذه النتيجة ، ثم يقبلونها ويظنون أنها أحسن النتائج التى يجب ان يصلوا اليها ، هم يعلمون ان مثل هذه السياسة تقتل حرية الرأى فى الطفل ، ولكنهم يقولون وماذا علينا فى ذلك ؟ اليس الاطفال شياطين صغيرة ؟ فيجب ان نقيد هذه الشياطين بالسلاسل

وأما الظاهرة الاخرى التى تتبين من هذا الحوار فهى النظرية المضادة لتلك النظرية التى تزعم ان الصبيان أناس ، وأن الانسان يخطىء ويصيب وان خطأ الصبيان أكثر من صوابهم ، وانه ينقصهم الاختبار والزمن الذى يجعل صوابهم يرجح على اخطائهم ، وان كل ماتقدم لايبرر حرمانهم من حق الارتياء والبحث والمناقشة ، ولا يجب أن يحرمهم من حق الاختيار وهو الدعامة الوحيدة التى تقوم عليها جميع الفضائل ، وأنه متى انعدم حق الاختيار فقد انعدم الخلق وتقوضت أسس الفضائل

نحن لانتكر أن سبيل النظرية الاولى أسهل وأقرب منالا من السبيل الاخرى ، وان اعطاء الصبى بعض الحريات يزيد فى تبعات المربى ويلقى على كاهله من المسئوليات ماقد يضيق معه صدره وينفد صبره ؛ وهذا الكتاب ملىء بأمثال هذه الحالات ويفيض بالشواهد على هذا ؛ ومع كل ذلك لاينفى هذا بأن التربية

الصالحة يجب ان تسلك هذا السبيل : وتعطى للصبى أقصى ماتستطيع ان تعطى من الحرية والارادة وحق الاختيار بغض النظر عما يلحق المربى من العناء والنصب فى هذا السبيل : فقد أصرت نظم التربية الحديثة على ان تغفل المربى من حسابها لأنها لم توجد من أجله وانما وجدت من أجل الصبى ، ثم ماذنب الصبيان اذا كان هذا يلقى التبعات على المربين ؟ لاذنب لهم فى ذلك فلا يجب ان نحملهم تبعاته

نحن اذن نتبع هذه السياسة فى قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية ،فكان من المحتم اذن ان نرى ذلك الصبى ونفاوضه فى الأمر عسانا نستطيع ان نوفق بين ميوله وميول أبيه ، مراعين فى ذلك ان نترك له أكبر قسط من الحرية فى هذا الامر .

ثم حضر الصبى ودعوته الى مكتبى وجلسنا نتحدث . قلت

— أظن أباك حدثك فى شأن دخولك هذا المعهد

— نعم ، لقد فعل ذلك

— هل أنت راغب فى هذا الأمر ؟

— أرغب فيه كل الرغبة

— حسن ، فى أى مدرسة أنت ؟

— فى المدرسة الفلانية

— وفى أى فرقة

— فى السنة الثالثة الابتدائية

— وما عمرك

— ١١ سنة

— كيف تريد ان تنظم وقت فراغك ؟

— أريد ان أحضر هنا كل يوم بعد الظهر أصرف بعض الوقت فى الرياضات التى تتوافر لنا فى هذا المعهد ثم أعود لدروسى

ـــ وهل هذا يرضى أباك ؟

ـــ أبى لا يرضيه شيء أفعله

ـــ كيف ذلك ؟

ـــ فقال والدموع تجول فى عينيه لا أعرف كيف كان ذلك ، وانما أعلم شيئاً واحداً وهو ان أبى يعود على باللائمة دائماً أبداً سواء أخطأت فى تصرفى أم أصبت

ـــ اذن فالمسائل تحرجت بينك وبينه الى هذه الدرجة

ـــ هو كذلك

ـــ ومن السبب فى تحرج العلاقات بهذا الشكل ؟

ـــ لا أعلم

ـــ قد يكون هو المخطىء اليس كذلك ؟

ـــ نعم

ـــ وقد تكون أنت المخطىء اليس ذلك أيضاً ؟

ـــ قد يكون ذلك

ـــ هذا حسن . وما رأيك فيما لو تعاونا نحن الثلاثة فى تحسين هذه العلاقات وجعلها من النوع المرغوب فيه الذى يرضى عنه أبوك وترضى عنه أنت ؟

ـــ وهل هذا ممكن ؟

ـــ سترى

ـــ لو تم ذلك لخدمتنى خدمة كبيرة

حسن اذن فلنبدأ من الآن . ولنبدأ ببناء العلاقات بينى وبينك على أساس متين ، سأثق بك وأرجو أن تثق بى فتطلعنى على كل مايزعجك فى البيت وفى المدرسة وفى الشارع ، وأنا من جانبى أعدك بانى لن أرغمك على نظام لاتحبه . بل سأفاوضك فى كل نظام أضعه لك . وثقتى فيك تجعلنى أنتظر منك أن تعارض فى كل مالا

ترغب فيه ومتى رضيت عن نظام بذاته فلا تغيره من نفسك قبل ان تطلعنى على عزمك هذا ، هل أنت موافق ، وهل تعد بهذا ؟

ـــ نعم موافق

ـــ لنبدأ اذن بنظام حضورك الى قسم الصبيان ، كم مرة تريد ان تحضر فى الاسبوع ؟

ـــ كما ترى

ـــ ليس كما أرى أنا أو كما يرى غيرى ، وانما أريد ان أعرف رغباتك أنت أو ماتشعر به بينك وبين نفسك

ـــ رغبتى ان حضر كل ليلة

ـــ حسن جداً ، وأنا أيضاً لى رغبة أود تحقيقها ، وهى ان أذهب الى الاوبرا والمراسح والسينما كل ليلة فى الاسبوع أو ثلاث ليال على أقل تقدير ، ولكن يمنعنى عن ذلك عوامل كثيرة منها ان عملى يتعطل وصحتى تسوء وترتبك ماليتى ، ومنها ان والدتى تنقد هذا ولا ترضاه ، وعلى هذا يجب ان أوفق بين هذه الشهوة وبين تلك العوامل جميعاً ، وهكذا الحال معك فانك لو حضرت الى قسم الصبيان كل ليلة لما استطعت ان تستذكر دروسك بالليل فلا يرضى عنك أحد لا مدرسوك ولا أنا ولا والدك

ـــ لكن والدى يصر على ان لا أحضر سوى مرة واحدة فى الاسبوع وهذا قليل

ـــ نعم هذا قليل ولا ارضاه لك وسوف أساعدك على ان أحصل لك على أكثر من هذا

ـــ هل ترضى ان أحضر ثلاث مرات فى الاسبوع

ـــ ليست المسألة فيما يرضينى أنا ، ولكنها فى كيف ترضى أنت وتشعر معه انك سعيد

ـــ أنا أرضى بهذا وأكون مسروراً

ـــ اذن أنا أرضى بهذا ايضاً واظنه معقولا وسوف اتحدث الى ابيك به وارى ماذا يقول فى هذا النظام ، لاننا نحن ثلاثة كما تعلم ويجب ان نكون جميعاً راضين فلا يجوز ان يتفق اثنان منا على امر وينفذاه سواء ارضى الطرف الثالث ام لم يرض ، الا ترى ان هذا حق ؟

ـــ هذا معقول

ـــ اذن فسوف ارى اباك وسوف تعرف رأيه فى القريب العاجل ، وانما هنا لك شيء آخر احب أن تلتفت اليه وتقدره قدره الحق

ـــ وما هو ؟

ـــ هو أن تحافظ على اتفاقك كما سأحافظ على اتفاقى معك

ـــ سأفعل

ـــ ثم ارجو لفائدتك الشخصية أن تدرس وتستعد فى اعمالك المدرسية بأكثر ما تستطيع ، لأن هذا المعهد يهمه نجاحك من كل الوجوه

ـــ حاضر سأفعل هذا ايضاً وسوف ترى انى اقوم بواجباتى المدرسية خير قيام ، وسوف تكون راضياً عنى

ـــ حسن جداً ، وانا من جانبى مستعد لأى خدمة تطلبها منى متى كان ذلك فى استطاعتى

وصافحته واقفا كعادتى . وخرج

ثم قابلت الاب . وبعد محاولات كثيرة ، وجدال طويل ، وبعد أن اظهر التردد والشك فى ثقتى بابنه قبل هذا الحل ثم اقنعته ايضا بان يترك الحرية لابنه فى أن يختار الايام التى يحب أن يحضرفيها ، وضمنت له بأن ما سوف يقترحه الصبى لا بد وان يروق الاب ، فقبل ايضا ، ثم انصرف

أما الصبي فقد حافظ على عهده ، ووفاه با حسن ما يفعل الرجل ، ثم انه تحسن فى اعماله المدرسية وانتقل من فرقة الى اخرى وحصل على الشهادة الابتدائية . ودخل فى المدارس الثانوية ، وتوطدت الصداقة والثقة بينى وبينه ، وتحسنت العلاقة نوعا مابينه وبين أبيه ، وأخذ رأى أبيه يتغير فيه وان كان ابوه ما زال ينتظر منه أكثر من هذ ، ثم قابلت الاب بعد سنة تقريبا وسألته رأيه فى ابنه فقال « آه — موش بطال ، اهو بيدرس نوعا » ولم يزد على هذا مما جعلنى اشعر انه هوالطرف الوحيد فى هذا الميثاق الذى يوشك أن ينكث بالعهد ويفسد اغراضنا فى هذا الصبي

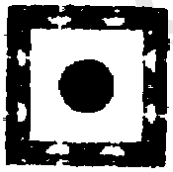

خاتمة

هذا فصل من حياة قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية ، وهذا مظهر من مظاهر الحياة فيه ، وأثر من فعل برنامجه ونظمه فى نفوس الصبيان

ولقد سئلت مراراً عما يفعله هذا المعهد مع أعضائه ، فكنت أعجز والحق يقال عن أن أعطى جواباً شافياً لهذا السؤال مما كان يجعل كثيرين من السائلين يذهبون فى طريقهم وهم غير مقتنعين بفائدة هذا المعهد للصبيان ، وبالطبع أعجز عن أن أفهم السائل فى دقائق قليلة الخدمة التى يقوم بها هذا المعهد ، أعجز لأن هذا الأمر كما يرى القارىء الآن يملأ مجلدات لأنه فى الواقع سؤال فى صميم التربية ، والتربية — كأى شىء آخر مهم — لاتشرحها جملة واحدة ، ولا تكفيها دقائق قليلة حتى تصير مفهومة لكل انسان

كنت جالساً مع بعض أصدقائى ، فهم انسان لاأعرفه وسألنى هذا السؤال

— هل تستطيع ياأستاذ أن تفيدنى بجملة واحدة كيف تكون الاخلاق فى الطفل ؟

بالطبع لم أستطع أن أجيب على هذا السؤال ، وأظن أن أى انسان فى مكانى يعجز مثلى ، قلت

— وهل تستطيع أن تفيدنى بجملة واحدة كيف يستطيع طلعت حرب أن يستثمر كل هذه الأموال ؟

— فقال نعم أستطيع — هو يفعل ذلك « بالأمانة »

— قلت الحمد لله ، عندنا اذن فى هذا البلد من الماليين اثنان طلعت حرب وانت ، أو ربما أنت أولا ثم طلعت حرب ثانيا .

لايستطيع الانسان فى الواقع أن يفهم أثر هذا المعهد وأمثاله فى حياة الصبيان لأول وهلة . ولا يتسنى له أن يحيط بهذا الاثر على عجل ، ولهذه الاسباب اضطلعت بنشر بعض نشاطه على الجمهور ليقدر هذا العمل التقدير الذى يستحقه

ولى غرض آخر من نشر هذه الصفحة من حياة هذا المعهد ، وهو ان تتنبه الامة المصرية لاطفالها وتفكر فى بعض الوسائل التى تعود عليهم بالخير من النواحى العقلية والاجتماعية والاخلاقية ، فلن تقوم لهذه الأمة قائمة قبل أن تنشىء جيلا أصلح للحياة من الاجيال السابقة ، ولن يكون هذا من غير عمل مقصود وسياسة معقولة متمشية مع قواعد التربية الحديثة

وارجو ان اكون قد فتحت بابا لوزارة المعارف وللمشتغلين بالتربية ومهدت لهم السبيل بهذا المجهود الضئيل حتى يرسموا خطة ناجعة للتربية فى هذه البلاد

مراجع

Boas, George (Our New Ways of Thinking)

Boyd, William (Towards A New Education)

Dewey, John (Democracy and Education)

Inge, W . R (Christian Ethics and Moden Problems)

Kilpatrick , W . H (Source Book in The Philosophy of Education)

Kimmis, C . W (The Child,s Attilude to Life)

King, W . P (Behaviorism A Battle Line)

King, W . P (Humanism Another Battle Line)

Lippmann, Walter (A Preface to Morals)

Lund, Fredrick H (Emotions of Men)

Roback, A . A (The Psychology of Character)

Thompson, G . H (A modem Philosophy of Education

Watson, J . B (The New Behaviorism)

Weld , H . P (Psychology As Science)

التربية والاخلاق يعقوب فام

obeikandi.com